وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم أتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩).

١٦ ـ المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار و ان عضداً لأبيه الموفق في حروبه وأعماله وولي العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض بن المعتمد (سنة ٢٧٩) وبويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المعتمد على اللّه لإحدى عشرة بقيت من رجب (سنة ٢٧٩) (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر (سنة ٢٨٩) (١٥ إبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد اللّه بن محمد الذي توفي (سنة ٣٠٠).

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن فيها بقرب الانتهاء.

ويعاصره في إفريقية وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي توفي (سنة ٢٨٩).

وفي مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى (سنة ٢٨٢) ثم جيش ابن خمارويه المتوفى (سنة ٢٣٢) ثم هارون بن خمارويه المتوفى (سنة ٢٩٢).

وفي زبيد من آل زياد إبراهيم بن محمد بن عبد اللّه بن زياد المتوفي (سنة ٢٨٩).

وفي صنعاء من آل يعفر عبد القادر أحمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٧٩) ثم إبراهيم ابن محمد بن يعفر المتوفى (سنة ٢٨٥) ثم أسعد بن إبراهيم المخلوع (سنة ٢٨٨) ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة.

وفي طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوي المقتول (سنة ٢٨٧).

وفي خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذي أسر (سنة ٢٨٧).

وفي بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى (سنة ٩١١).

وفي فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفى (سنة ٨٩٨) ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى (سنة ٩٢٣).[١]

وزراء الدولة:

أول وزراء المعتضد عبيد اللّه بن سليمان بن وهب واستمر في وزارته حتى مات (سنة ٢٨٨) فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد اللّه ومات وهو وزيره.

من المهم أن نذكر هنا ملخصاً لما أورده الكاتب هلال بن المحسن الصابىء في كتابه الموسوم بتحفة الأمراء في أخبار الوزراء لندل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد.

قال عن عبد الحميد الكاتب: لما تولى أبو القاسم عبيد اللّه بن سليمان وزارة المعتضد باللّه رحمة اللّه عليه والدنيا منفلقة بالخوارج والأطماع مستحكمة من جميع الجوانب والمواد قاصرة والأموال معدومة وقد استخرج إسماعيل بن بلبل خراج السواد لسنتين في سنة وليس في الخزائن موجود من مال ولا صياغة احتاج في كل يوم إلى ما لا بد منه من النفقات إلى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوماً وهو في مجلسه من دار المعتضد باللّه: يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فإن كنت تعرف وجهها تعينني به فأحب أن ترشدني إليه فحسن له إطلاق ابني الفرات وأبي الحسن علي وأبي العباس أحمد ابني محمد بن موسى بن الفرات. وكانا محبوسين بعد أن صودر فحسن الوزير للمعتضد إطلاقهما والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا أحمد بن محمد الطائي وضمناء أعمال سقي الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار وفي كل شهر ستة آلاف دينار وأخذ خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ما تقرر من أوقاته واستقبلا به في المياومة يومهما وفي المشاهرة غدهما.

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد باللّه:

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجري مجراهم.

١٠٠٠ دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب.

١٥٠٠ دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية.

٦٠٠ أرزاق المماليك المختارين.

٥٠٠ أرزاق الفرسان المميزين.

١١٠ أرزاق سبعة عشر صنفاً من الموسومين بخدمة الدار.

٥٠ المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجري مجراهم.

٣٠٠ أثمان إنزال الغلمان المماليك.

٢٥٣ ½ نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان.

١٠٠ ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك.

٤ أرزاق السقايين بالقرب.
١٦٧ أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك.
١٠٠ أرزاق الحرم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة إلخ.
١٠٠ أرزاق الحرم.
٤٠٠ ثمن علوفة الكراع في الإصطبلات الخمسة.
ﻧ ٦٦ ما يصرف في ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل.
٣٠ أرزاق المطبخين.
٣٠ أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم.
ﻧ ٦ ثمن الشمع والزيت.
٥ أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج.
ﻧ ٤٤ أرزاق الجلساء وأكابر الملهين.
ﻧ ٢٣ أرزاق المتطببين وتلامذتهم مع أثمان الأدوية.
٧٠ أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح.
ﻧ ٦١ أرزاق الملاحين.
٤ ثمن نفط ومشاقة.
١٥ صدقة يومية.
ﻧ ٣٣ جاري أولاد المتوكل.
ﻧ ١٦ جاري ولد الواثق والمهتدي والمستعين وسائر أولاد الخلفاء.
ﻧ ١٦ جاري ولد الناصر.
٢٠ أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام.
ﻧ ٣٣ جاري جمهور بني هاشم.
٣٣ رزق الوزير وابنه.
ﻧ ١٥٦ أرزاق أكابر الكتاب وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد.
ﻧ ١٦ رزق القاضي وخليفته وعشرة فقهاء.
ﻧ ٣ خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام.
٥٠ نفقات السجون.
١٠ نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين.
١٥ نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية.

obeikandl.com

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التي كانت تصرف في الحضرة كل يوم حوالي سبعة آلاف دينار وفي الشهر (٢١٠٠٠٠) وفي السنة (٢٥٢٠٠٠٠) دينار وهو مقدار قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة في عهد المأمون والمعتصم ولا غرابة في ذلك فإن كثيراً من الأقاليم استقل بإدارته وأمواله المتغلبون وما بقي لبني العباس لم يعمره العدل والأمن لكثرة الاضطرابات في الجزيرة وبلاد العراق وفارس.

اضطرابات الجزيرة:

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بني العباس لا يقرون بالخضوع لهم بل كانوا على ما لم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم في ديار ربيعة وفي ديار مضر ولا سيما بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعاً وخروجاً بنو شيبان من ربيعة.

ففي أول خلافة المعتضد سار إلى بني شيبان بالموضع الذي يجتمعون فيه من أرض الجزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا إليهم أموالهم وأغار المعتضد على الأعراب عند السن فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم غرق في نهر الزاب مثل من قتل ثم سار إلى الموصل فلقيته بنو شيبان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم إلى ما طلبوا وعاد إلى بغداد.

وفي (سنة ٢٨١) سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدي حمدان بن حمدون الذي تغلب عليها وهو جد الأسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضد إليه ترك في القلعة ابنه وسار عنها فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفي الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته إلى بغداد.

وكان مما يهم المعتضد خارجي ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشاري واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان إلا هزمه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين: إن أنا جئت به فلي ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداها إطلاق أبي وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي فأجابه المعتضد إلى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم ما زال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيراً وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والإحسان إليه فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية.

القرامطة:

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع في سواد الكوفة ويدخل الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة.

في قريب من الوقت الذي انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له سعيد الحسن الجنابي وجنابة من سواحل فارس يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الفارسي وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك نشأ بها أبو سعيد هذا وكان دقاقاً فنفي عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجراً وجعل يستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوي أمره فقتل ما حوله من أهل القرى وفعل ذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التي كتب عليها الشقاء فإنه لم يمض على ما لاقته من السوء على يد دعي العلويين أكثر من (١٥ سنة) فكتب واليها إلى المعتضد يخبره بالأمر فأمره المعتضد أن يبني على البصرة سوراً ففعل وفي (سنة ٢٨٧) أقبل الجنابي بجموعه يريد البصرة فأرسل إليه المعتضد جيشاً قائده العباس بن عمرو الغنوي فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما في العسكر وقتل الأسرى ثم سار الجنابي بعد الواقعة إلى هجر وانصرف المنهزمون إلى البصرة فلقيهم الأعراب فأفنوهم: أحدث ذلك بالبصرة قلقاً واضطراباً حتى هم أهلها بالجلاء عنها ولكن واليها هدأ بالهم.

أما أمرهم بسواد الكوفة فإنه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه أرسل إليهم جيشاً يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائي فظفر بهم وأخذ رئيس لهم يعرف بأبي الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح اللّه تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال: يا هذا إن حلت روح اللّه فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعينك وسل عما يخصك. فقال: ما تقول فيما يخصني قال: أقول إن رسول اللّه ﷺ مات وأبوكم العباس حي فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد الصحابة على ذلك ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها؟ فأمر به المعتضد فقتل.

كان تتابع الجيوش من المعتضد إلى من بسواد الكوفة سبباً لأن داعية قرمط زكرويه بن مهرويه سعى في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا (سنة ٢٩١) ابن زكرويه المسمى يحيى المكنى بأبي القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا الشام وكانت إذ ذاك في حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مراراً فهزموه.

هذا ما كان منهم في حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدءوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت اللّه المقدس كما يأتي بيانه.

وفي تلك الأزمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وإفريقية فكانت الدعوة الإسماعيلية رتبت أن يكون في آن واحد بجميع الجهات الإسلامية حتى لا يكون لبني العباس قبل بملافاة شرها وكذلك كان.

أمر المشرق:

اتسع سلطان عمرو بن الليث في أول عهد المعتضد ودخل نيسابور (سنة ٢٨١)ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوي ودعا له على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانياً وكان رافع قد هرب إلى طوس فأرسل إليه عمرو جنداً فلحقوه هناك وقاتلوه فانهزم إلى خوارزم فتبعوه إليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو إلى المعتضد كتاباً بذلك مع رأس رافع فأرسلت إلى عمرو الخلع ولواء الولاية على الري وهدايا من قبل المعتضد.

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل إلى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد السامانى أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل إليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بإرسال هدية فكان مبلغ المال الذي وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و (١٥٠) دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة.

كانت هذه الولاية سبباً لمصيبة عمرو بن الليث فإنه خرج ليحوزها ولم يكن إسماعيل بالذي يسلمها إليه فكتب إليه إنك قد وليت دنيا عريضة وإنما في يدي ما وراء النهر وأنا في ثغر فاقنع بما في يدك واتركني مقيماً بهذا الثغر فأبى إجابته إلى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة في عبوره فقال: لو أشاء لسكرته ببدر الأموال وعبرته ولما أيس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربي وجاء عمرو فنزل بلخا وأخذ إسماعيل عليه النواحي فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولى هارباً ومر بأجمة في طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه: امضوا في الطريق الواضح ومضى في نفر يسير فدخل الأجمة فوحلت دابته فوقعت ولم يكن له في نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلووا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيراً وخيره إسماعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل إلى المعتضد فاختار أن يوجه إلى المعتضد فحبس وبذلك

انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالأمر بقتل عمرو فقتل في أول خلافة المكتفي.

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لأخذ خراسان لأنه فهم أن إسماعيل بن أحمد لا يبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريداً الاستيلاء على خراسان فلما صار إلى جرجان كتب إليه إسماعيل يسأله الرجوع إلى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب إسماعيل لحربه قائداً في جند فلقيه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين: عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر في التاريخ.

ولما تم ذلك كله على يد إسماعيل أرسل إليه المعتضد الخلع بدنة وتاجاً وسيفاً من ذهب مركباً على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثة آلاف ألف دينار يفرقها في كل جيش من جيوش خراسان يوجهه إلى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبذلك صارت القوة في المشرق للأسرة السامانية فبيدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان إلى الري وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام.

أمر المغرب:

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب إليه كثيراً فأهدى إليه كثيراً فأهدى إليه لأول خلافته من العين عشرين حملاً على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلاً على عشرين نجيباً بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة ومعهم حراب فضية وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة و (٣٧) دابة بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة. ثم أراد أن يتقرب إلى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قطر الندى من علي بن المعتضد فقال المعتضد أنا أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعد هذا. ولما تم الجهاز أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم (سنة ٢٨٢) وكان المعتضد

إذ ذاك غائباً بالموصل فأدخلت للحرم حتى قدم فنقلت إليه في رابع ربيع الثاني ونودي في جانبي بغداد ألا يعبر أحد في دجلة يوم الأحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التي تلي الشط ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع ووكل بحافتي دجلة من يمنع الناس أن يظهروا في دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتمد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بإزاء دار صاعد التي كانت فيها قطر الندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت إليها حتى وصلت إلى دار المعتضد.

كان خمارويه يلي مصر وإليه طرطوس والشام فكانت إليه المحافظة على ثغر طرسوس وجنوده تقوم بذلك خير قيام. لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه (سنة ٢٨٣) ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة ما يسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا بغداد فأكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيش فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سبباً لخروج طرسوس من أيدي بني طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبو أن يولي عليها والياً من قبله ففعل.

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل إلى ست المال ببغداد كل سنة (٤٥٠٠٠٠) دينار ووجهت الخلع والعقد إلى هارون. ومن هذا يتبين أن نفوذ المعتضد في مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذي وقع بينهم.

صفات المعتضد:

كان المعتضد قوي القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة في عهده أكثر مما كان في عهد أبيه من الهيبة وإن كان الأمر في الحقيقة جل أن يصلح لأن وراءهم عدواً لا ينام يريد إفساد ملكهم ما أمكنه ولو أدى ذلك إلى إفساد البلاد كلها. وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكاً للدماء شديد الرغبة في التمثيل بمن يقتله.

وله إصلاحات داخلية جليلة منها أنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام وأمر بإبطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء ومنها اهتمامه بكري دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخراً كان يمنع الماء.

ومن أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدي وإنا قائلون كلمة في شرحه: معلوم أن دين الإسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها صوم رمضان وحج البيت في ذي الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التي تزيد على السنة الهلالية

أحد عشر يوماً وربعاً إلا قليلاً، ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل أن المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لأن جباية الخراج إنما تكون عند إدراك الثمار والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج في يوم النيروز.

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية (٣٦٠) يوماً كل شهر ثلاثون يوماً كاملاً وكانوا يضيفون إليها خمسة أيام بين آبان ماه وأذرماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم في كل (١٢٠ سنة) من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذي يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فألحقوا الشهر التام بها في كل (١١٦ سنة)، وبناء على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهراً كاملاً كلما مضت هذه المدة. فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز ففي عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلي بن يحيى المنجم: إن الزرع أخضر بعد ما أدرك وقد استأمرني عبيد الله بن يحيى في استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النيروز والزرع لم يدرك بعد؟ فقال له علي: ليس يجري الأمر اليوم على ما كان يجري عليه أيام الفرس ولا النيروز في هذه الأيام في وقته الذي كان في أيامها لأنها كانت تكبس في كل (١٢٠ سنة) شهراً وكان النيروز إذ تقدم شهراً وصار في خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار في خمس من أيار وأسقطت شهراً وردته إلى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا، فلما تقلد خالد القسري العراق وحضر الوقت الذي تكبس فيه الفرس منعها من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النيروز تقدماً شديداً حتى صار يقع في نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل: فاعمل لهذا عملاً ترد النيروز فيه إلى وقته الذي كان يقع فيه أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب (سنة ٢٤٣) ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل. فلما ولي المعتضد وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالأمر وحسب المدة التي تقدمها تاريخ النيروز بسبب إهمال الكبس فوجد أنه تأخر ستين يوماً فأخر النيروز بقدره فكان في (١١ حزيران) فجعله كذلك دائماً لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر. قال البيروني في كتابه الآثار الباقية: وهذا وإن دقق في تحصيله فلم يعد به النيروز إلى ما كان عليه عند الكبس في دولة الفرس وذلك أن إهمال الفرس كبسهم كان قبل هلاك يزدجرد بقريب من سبعين سنة لأنهم كانوا قد كبسوا السنة في زمان يزدجرد بن سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة وكان النوبة لأبان ماه كما سنذكر والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفروغاً منه إلى مدة طويلة فإذا أسقط من السنين التي بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهريار (١١٠ سنة) بقي بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فإن تواريخ الفرس مضطربة جداً ويكون حصة هذه السبعين سنة

من الأرباع قريباً من (١٧) يوماً فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر (٧٧) يوماً لا (٦٠) حتى يكون النيروز في (٢٨ حزيران) ولكن المتولي لذلك ظن أن طريقة الفرس في الكبس كانت شبيهة بالتي يسلكها الروم فيه فحسب الأيام من لدن زوال ملكهم والأمر فيه على خلاف ذلك اهـ.

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فإنهم لما رأوا بالحساب أن كل (٣٢ سنة) شمسية تساوي بالتقريب (٣٣ سنة) هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت (٣٢ سنة) ففي (سنة ٢٤١) الخراجية نسب الخراج إلى (سنة ٢٤٢) الهلالية وأسقطت (سنة ٢٤١) لأن الغلة إنما أدركت (سنة ٢٤٢). ولنضرب لذلك مثلاً يفهم به ما كانوا يعملونه كان أول المحرم (سنة ٢٠٤ وهو ٤ مايو سنة ٨٢٤) أول المحرم (سنة ٢٤٢ وهو ١٠ مايو سنة ٨٥٦) ومن بين هذين (٣٣ سنة) قمرية و(٣٢ سنة) شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجي سنة ٢٤١ فلكي تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحداً حتى يكون (سنة ٢٤٢) ويسقطون من الخراج (سنة ٦٤١).

وقد كتب المعتضد بذلك كتاباً أمر فيه أن تكون جباية الخراج في العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجري مجراهما على الطريق التي رسمها وإنما قيد بالعراق والمشرق لأن الحال في مصر كانت على الكبس القبطي وفي الشام على الكبس الرومي وكلاهما لا يتغير به الزمان.

والمعتضد هو الذي ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد بل لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد وفي ذلك يقول ابن المعتز:

قد أقفرت سامرا ... وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها ... كأنها آجام
ماتت كما مات فيل ... تسل منه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهدي والمعتمد وبها قبر إمامين من أئمة الشيعة وهما علي بن محمد والحسن بن علي العسكريان وبها السرداب التي تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدي المنتظر.

وفاة المعتضد:

توفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر (سنة ٢٨٩) وكان ولي عهده ابنه المكتفي.

١٧ ـ المكتفي

هو علي المكتفي بن المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك (ولد (سنة ٢٣٦) وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك في (٢٢) ربيع الآخر